

المحور الخامس : عوامل انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء .

يعتبر موضوع انتشار الإسلام في إفريقيا من أهم الموضوعات التي يتناولها الباحثون في تاريخ هذه القارة ، و ذلك للتأثير المترتبة عنها سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية ، و قد أثار هذا الموضوع جدلاً كبيراً بين المؤرخين ، و قد تحامل عدد كبير منهم لاسيما المستشرقين و اعتبروا أنَّ انتشار الإسلام كان بحد السيف ، و على النقيض فإنَّ أغلب المؤرخين المسلمين يرون أنَّ الإسلام في إفريقيا قد انتشر نتيجة عوامل عديدة أغلبها بعيدة عن السيف و القوة ، و سنعرض بإيجاز أهم هذه العوامل التي أسهمت في نشر الإسلام في القارة الإفريقية .

أولاً : العوامل الذاتية :

هي تلك العوامل التي ترتبط بالإسلام كدين و عقيدة و منهج و سلوك ، فالدين الإسلامي في جوهره يحمل الكثير من الخصائص و السمات المتميزة التي تتعلق بحياة الإنسان و تخاطب مباشرة عقله و وجدانه ، كما أنَّها تتعلق بسلوكه و حياته اليومية ، و لقد دعا الإسلام إلى تقويض الأوضاع و الأفكار الفاسدة مبتدئاً بالوثنية و ما يتبعها من ضلالات الشرك و حارب العصبية و القبيلة التي كانت دائماً تحول دون توحيد الناس و اجتماع شملهم ، و كانت تؤدي إلى إثارة الضغائن و استمرار الأحقاد و الحروب¹ .

و هناك قضية أخرى على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لإفريقيا جنوب الصحراء عانت و لا تزال تعاني من تأثيراتها عليها و هي تجارة الرقيق ، و قد عالج الإسلام هذه الظاهرة و حدَّ من انتشارها ، فليس هناك في القرآن و لا في السنة و لا في سلوكيات الصحابة ما يأمر بالاسترقاق ، فهناك مئات النصوص تدعو إلى العتق ، و لما كانت مسألة الرِّق شديدة التعقيد في هذه الفترة فقد تدرَّج الإسلام في حلِّها ، فأبطل ما كان متعارفاً عليه من أسباب تبيح استرقاق الإنسان و سلب حريته ، و نستطيع أن ندرك كيف أنَّ الإسلام لم يفرِّق بين العبيد و غيرهم بل رفع شأنهم و اعتمد عليهم من أجل تحريرهم² .

و من العوامل الذاتية الهامة التي تميز بها الإسلام معالجته للجوانب الاقتصادية المتعلقة بحياة الفرد و الجماعة ، فقد فرض الزكاة و جعلها ركناً من أركان الإسلام ، كما منع التداول بالربا و أمر بإيفاء

الحقوق و الديون و استيفاء المكاييل و الموازين و عدم الغش في البيع و الشراء ، كما دعا الإسلام إلى الطهارة و النظافة و حسن المظهر و الهندام ، و الخلاصة أنَّ الإسلام اشتمل على العديد من الخصائص الذاتية التي تتعلق به كدين ، و هي المرتكز الأول في حركة انتشاره و اختور الأساسي في إقناع الآخرين به كدين سماوي خاتم لكافة الأديان¹ .

ثانيا : التجارة .

لقد كان التاجر المسلم محركا أساسيا لعملية نشر الإسلام في القارة الإفريقية خاصة في منطقة السودان الغربي و حمل الناس هناك على الدخول في الإسلام ، و ذلك بسبب تصرفه الحسن و أمانته و محافظته على أمور دينه و عقيدته ، و لعلنا لا نكون مبالغين إذا قلنا إنَّ الإسلام انتشر في كل مكان وصل إليه التجار المسلمون ، ذلك أنَّ التاجر المسلم كان داعية إلى دينه إمَّا بطريقة مباشرة أو بغير مباشرة و ذلك نتيجة اختلاطه و تعامله مع التجار غير المسلمين فيجذبهم إلى الإسلام بتعامله الحسن و خلقه الكريم و صدقه في التعامل و حسن مظهره .

لقد انتشر الإسلام في أرجاء القارة الإفريقية عن طريق التجارة و استطاع المسلمون أن يصلوا إلى مناطق واسعة في هذه القارة و كَوَّنوا لهم مراكز تجارية في هذه المناطق و اختلطوا بالسكان المحليين و امتزجوا بهم ، و لقد كان لغنى القارة و انتاجها لسلع كثيرة و خاصة الذهب أثر على اجتذاب التجار المسلمين الذين لعبوا دور الوساطة لترويج هذه البضائع ، فأقيمت الطرق التي تصل العالم بمناطق القارة ، ففي السودان تدفقت جموع التجار المسلمين عبر المسالك الصحراوية من المراكز الشمالية كطرابلس و فزان و تاهرت و سجلماسة و فاس إلى تمبكتو و أدغششت و غانة و غيرها من المدن ، و نتيجة لهذا الإرتباط التجاري فقد استقر عدد من التجار المسلمين في المدن السودانية و كَوَّنوا أحياء خاصة بهم و أقاموا فيها المساجد و المدارس مما كان له عظيم الأثر في نشر التعاليم الإسلامية².

و في شرق إفريقيا كان التجار البمبيون كثيرون التردد على هذه المنطقة ، و كانوا يتشرون في بلاد الصومال و الحبشة يتاجرون و يدعون إلى الدين الحنيف ، إلا أنَّ الفضل الأكبر في نشر الإسلام

في الحبشة يعود إلى طائفة من التجار المسلمين نشأت في مدينة قומר المصرية تتألف من مهاجرين من أهل التكرور و بعض الغنود و العرب ، و قد أخذت لنفسها اسم الكارمية أو الكاثمية نسبة إلى بلاد كاتم حول بحيرة التشاد ، و كانوا على قدر كبير من الورع و التقوى ، و جعلوا من أنفسهم دعاة للإسلام إلى جانب اشتغالهم بالتجارة ، و مما ساعد على نجاح هؤلاء أنَّ الحبشة في القرن 17م انقسمت إلى إمارات ضعيفة ، و كانت الطبقات الفقيرة المثقلة بالضرائب أكثر الناس تحولا للإسلام ، و قد أسلم على يد الكارمية كثير من قبائل الحملا و الصومال ، و دخل الإسلام الصومال و كينيا و تنجانيقا بفضل جهود و نشاط التجار العمانيين ، و عن طريق التجار العرب دخل الإسلام أوغندا في النصف الأول من القرن 19م ، و كان للتجار فضل كبير في نشر الإسلام في بلاد الهوسا حيث تمتد رحلاتهم من ساحل غانا إلى القاهرة ، و بلغ من أثرهم أن صارت لغتهم اللغة التجارية لأهل السودان ، و بانتشار لغة الهوسا اتسعت دائرة الدعوة للإسلام² .

ثالثا : المعلمون و الدعاة المحليون .

يتمثل دورهم في إكمال عمل التجار حيث قاموا بتدعيم عملية التحول إلى الإسلام ، فكلما تطور المجتمع الإسلامي احتاج الأمر إلى وجود معلمين و علماء لتعليم الأفراد الدين الجديد ، بل إنَّ بعض العلماء الدين من الأفارقة أسهم إسهاما كبيرا في إثراء الحضارة العربية الإسلامية ليس على مستوى إفريقيا وحدها و لكن في البلاد الإسلامية الأخرى² ، و من هؤلاء العلماء مثلا علماء سلطنة كاتم الإسلامية و منهم الشيخ عمر بن عثمان الذي رحل إلى مصر و التحق بالأزهر الشريف ثم سافر إلى مكة و المدينة ، و بعد أن تضلَّع في العلوم عاد إلى كاتم بعد عشر سنوات ، و الشيخ عبد الرحمان السعدي صاحب كتاب تاريخ السودان ، و محمود كعت صاحب تاريخ الفتايش³ . و كان الدعاة يتفرغون للدعوة و التعليم ، فكانوا يجمعون حولهم عددا من الأطفال و الشباب و سرعان ما يظهر امتيازهم عن رفاقهم الذين لم ينخرطوا في سلك التعليم ، و هذا ما ساعد على

جذب أعداد أخرى جديدة كل يوم للانضمام إلى الحلقة ، و الداعي المسلم يستطيع أن يمدّ القبائل الزنجية غير المتحضرة بكثير من الحقائق المتعلقة بالله و بالإنسان ، و إذا استطاع المعلم الداعي إقناع شيخ القبيلة فإنّ القبيلة كلها تتبع شيخها في دخول الإسلام ، و إقناع هذا الشيخ لم يكن عسيرا لأنّ الإسلام يحافظ له على مركزه و مكانته و يمنحه حقوقا مقابل التزامات ليس من الصعب الوفاء بها ، و لقد تعاون التاجر و الداعي تعاوناً ملحوظاً و بذلاً معاً جهداً مضنياً في سبيل نشر الإسلام ، فكتيرا ما كان التاجر يدفع من ماله الخاص ليهيئ للمعلم مكاناً يلتقي فيه بالناس و يزوّده في نفس الوقت بما يحتاجه من نفقات شخصية ، و مقابل هذا يعطي المعلم و الداعي من جهده و فكره ما يهدي الناس و يحقق الغاية و هي نشر الإسلام¹.

رابعا : الهجرة .

لقد لعبت الهجرة الإسلامية إلى دواخل إفريقيا دورا كبيرا و هاما في نشر الإسلام في هذه المناطق ، و قد أذن النبي صلى الله عليه و سلم للمسلمين بالهجرة إلى الحبشة و عاش المسلمون الأوائل فيها مدة من الزمن ، فالهجرة إلى الحبشة و العلاقات التجارية التي كانت قائمة قبل الإسلام استمرت بعده ، و حمل المهاجرون و التجار الجدد إسلامهم معهم ، و من ثم أخذ الإسلام يظهر و ينتشر ، و في ظل الغزى السياسية التي عصفت بالمسلمين في القرن الأول الهجري فإنّ الكثير من أهل الحجاز و اليمن قصد ساحل شرق إفريقيا و توغلوا في المناطق الداخلية منها ، و في منتصف القرن الرابع الهجري وصلت هجرة أخرى أكبر من سابقتها و استقرت جنوب مقديشو ، و يعود سببها للهجوم الذي قام به المغول و دخولهم شيراز ممّا اضطر حاكمها إلى الخروج على رأس ألف و مائتي رجل ركبا البحر نحو ساحل الزنج ، و تمكنوا من فرض سيطرتهم على الساحل و أسسوا مملكة الزنج التي أخضعت لسلطانها الكثير من المراكز و الجزر ، و في جنوب إفريقيا انتشر الإسلام عن طريق جماعات مهاجرة من أهل الدلايو و أندونيسيا و سيلان و شبه القارة الهندية ، و استطاع هؤلاء المهاجرين تأسيس مجموعة من الوكالات التجارية في ساحل شرق إفريقيا مثل مقديشو و موزنيق ، كما حدثت هجرات في فترات متأخرة من جزيرة سومطرة و الخليج الفارسي منتصف القرن 13 م².

خامسا : الطرق الصوفية .

تنتشر الطرق الصوفية في أنحاء القارة و هي أوسع انتشارا و أكثر تأثيرا في إفريقيا جنوب الصحراء عنها في الشمال ، و إن كان من الملاحظ أنَّ نشاطها في نشر الدعوة قد بدأ متأخرا و لم يتبلور إلا في القرن 19م ، و من أهم الطرق الصوفية الموجودة في إفريقيا الغادرية و السنوسية و التيجانية ، و يجذب الإفريقي بشدة للطرق الصوفية ، فالإلتفاف حول الشيخ و الإشتراك في حلقات الذكر أو ما يسمى بالحضرة يملأ الفراغ الروحي عند الإفريقي و يحتل جزءا من وقت فراغهم و خصوصا في المساء حيث الإنشاد الديني و الحركات الإيقاعية التي تستهوي الإفريقيين الذين تعودوا على التعبير بالرقص في أوجه حياتهم كافة بما فيها الدينية ، و أهم إنجازات الطرق الصوفية هو أنَّ التحول للإسلام انتقل على أيديها من حالات فردية إلى حالات جماعية ، و هو ما يمثل خطوة في تدعيم الإسلام في نفوس الأفارقة¹.

و يجد المتابع لما كتبه العلماء الأفارقة بالذات من تراجم لفقهاءهم و لرجالات العلم ضروبا من الإيمان بخوارق العادات لدى هؤلاء العلماء ، و بالإيمان بالتجليات التي يلصقونها بألقاب الفقهاء و العلماء لدرجة أن يصبح لكل واحد منهم صفة و نصيبه الخاص به من المعجزات التي تؤهله إلى إيمان الناس بعلمه و بكونه من أولياء الله المعترف لهم باسمطاء الإله لهم و تمكينه لهم كي يصبحوا من الأولياء الصالحين بحيث يترك الناس بهم عن جدارة و استحقاق ، و لكن أتباع الطرق الصوفية بالغوا في اعتبار قبور هؤلاء الأولياء مزارات للتبرك و الشفاعة و طلب العون كالمساعدة على الإنجاب أو على الشفاء من الأمراض إلى غير ذلك ، و هذا مما لا ينسجم و مفهوم الإسلام الخالي كما هو معروف من البدع و الخرافات².